من (الإمام الشيخ) حسن البنا..

ايديولوجيا الإسلام السياسي تتحمل مسؤولية الخلط بين مفهومي القتال والجهاد .. والكارثة ان حملة هذه الايديولوجيا والمبشرين بها ينطلقون من التخريجات الفقهية التي تقول بان آيات السيف نسخت آيات الدعوة لله بالموعظة الحسنة والعمل الصالح .

المحطة الثانية
صنعاء ـ 2004

حاوره في القاهرة و صنعاء:
أحمد الحبيشي

الحبيشي : استاذ جمال لننتقل الآن من الماضي إلى الحاضر.. من اشكاليات عهد مضى إلى اشكاليات واقع نعيشه بكل تحدياته وتناقضاته ومصاعبه.. أود أن اتعرف على رؤيتكم لما يعانيه العالم الإسلامي من مشاكل في داخله ، ومشاكل مماثلة مع الآخر في العالم الخارجي غير المسلم بسبب مفاهيم لا تحظى باجماع كل المسلمين حول « الجهاد »؟

البنا : اولاً هناك فرق كبير بين كلمتي الجهاد والقتال.. الجهاد شيء والقتال شيء آخر وكلاهما مختلفان تماماً في المضمون والبنية اللغوية.. الجهاد اسم مصدر للفعل يجاهد، بمعنى ان الانسان يجاهد الشرور والشهوات.. الجهاد مجاله اصلاح وإعادة بناء النفس البشرية ولا يعني بالضرورة حمل السلاح واستخدامه لقتل النفس.

بعيداً عن كلمة ((الجهاد)) يأتي ((الجهد)) بمعنى العمل من خلال بذل مجهود عضلي أو ذهني وما شابه ذلك ، لكن القتال يعني شيئاً آخر تماماً.. انه يعني حرباً بالسيف تراق فيها الدماء وتزهق فيها الارواح ويدمر على جوانبها العمران .. على النقيض تماما من جهاد العمل والبناء الذي يرتبط بازدهار العمران ، وسعادة الانسان واستمرار الحياة .

هناك خلط بين القتال والجهاد .. وتتحمل ايديولوجيا الإسلام السياسي مسؤولية هذا الخلط .. والكارثة ان حملة هذه الايديولوجيا والمبشرين بها ينطلقون من التخريجات الفقهية التي تقول بان آيات السيف نسخت آيات الجهاد في سبيل الله بالدعوة والموعظة الحسنة والعمل الصالح .

هذا كلام لا يؤخذ به اطلاقاً.. كيف يجوز ان نعمل سكين النص في آيات القرآن .. لايجوز ان نبتر آيات ونقطعها كما يفعل الجزار في اللحم .. هذا مرفوض تماماً لان القرآن لا يضرب بعضه بعضا ، ولكن يكمل بعضه بعضا .. و ولا يجوز أن نلغي عقولنا ولنصدق القول بان بعض آيات القرآن تلغي بعضها .. وان الروايات والأحاديث التي نقلها او إخترعها الرواة تنسخ أو تلغي حكم الله في القرآن أوتضيف اليه او تشاركه في تشريع الأحكام .. هذا كلام خطير.. هذا كلامٌ به خبيئٌ .. معناه ليست لنا عقولُ .. بحسب قول أحد أعلام الشعر العربي لا يحضرني إسمه الآن .. ولكن يمكن القول ان بعض الآيات القرآنية تعد تطويراً وتعميقاً لبعضها الآخر نحو الافضل والأعمق.

في كتابنا الذي اصدرناه حول «الجهاد » حاولنا تقصي كلمة قتال في القرآن الكريم من أول الفاتحة حتى سورة «الناس» وجرى التركيز على كل أية تشير إلى القتال .. ثمة أية تقـول «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم و لا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين» .. والثابت ان القتال هنا هو الدفاع عن حرية العقيدة دفعاً للمشركين الذين أرادوا ان يعود المسلمون إلى شركهم القديم وحاربوهم على هذا الأساس .. فكان لابد للمسلمين ان يدافعوا عن عقيدتهم قتالاً بعد ان حاولوا بالوسائل السلمية وفشلوا.. بل وتعرضوا لحرب عدوانية ظالمة شنت عليهم .. فكان لابد من ان يرد عليها بالحرب بدلاً من الاستسلام والذل والرجوع عن العقيدة وامتهان الضمير.

الفكرة في كل الآيات التي جاءت في القرآن توضح أن هذا القتال الذي تطرقنا اليه هو رد على الذين ((يقاتلونكم)) .. ومما له دلالة ان يأتي الأمر للمسلمين بقتال من يقاتلونهم .. ثم يأتي قوله تعالى بان من عفى واصلح فأجره عند الله .. وقوله « وان جنحوا للسلم فاجنح له ».. بمعنى ان القتال في الإسلام ليس عدوانيا ولم يكن لنشر الإسلام بواسطة الإعتداء على الآخرين .. لأن الله لا يحب المعتدين .. بل كان الإذن بالقتال للدفاع عن حرية العقيدة .. وهذا امر مشرف ومشروع لانه يشير إلى ضرورة الدفاع عن كرامة الإنسان .. ذلك أن الإنسان حين يجبر على التنازل عن عقيدته ، فان ذلك يقود بالضرورة إلى قبول التنازل عن ضميره وانسانيته.

الحبيشي : كلامك هذا يتسق تماماً والكثير من ارائك المعلنة في مناقشاتك مع من يسمون انفسهم بـ «الجهاديين » .. فقد سبق لكم ان اوضحتم ان الهدف الوحيد المسموح به للقتال في الإسلام هو الدفاع عن العقيدة أو عن النفس أو عن الملك المشروع .. أي انها في جميع الحالات حرب دفاعية وفي غير هذه الحالات تعتبر الحياة مقدسة ولا يجوز المساس بها.. ولكن أيمن الظواهري قال كلاماً و مثيراً للدهشة والتساؤلات في كتابه (فرسان تحت بيارق النبي) الذي أصدره بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 م .. ثم تكرر هذا الكلام بشكل تبسيطي مرة أخرى عندنا في اليمن على لسان الشيخ (المهندس) عبدالله صعتر عضو مجلس شورى حزب التجمع اليمني للإصلاح الذي أصدر شريطاً (دعوياً) و كتب مقالاً في إحدى صحف حزبه بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لأحداث 11 سبتمبر قال فيه بالحرف الواحد : (لايجوز ان يبقى شبر على الأرض لا يدين بالإسلام ولا تحكمه شريعة الإسلام ، وان الله لم يرسل نبيه محمد عليه الصلاة والسلام ليبقى في مكانه بل قال له ولاتباعه المسلمين : وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله) .. ما تعليقكم؟

البنا : هذا ليس تبسيطاً .. انه تسطيح وتحريف لمعاني القرآن حيث يتحول الدين على يد حملة هذا التأويل من السلفيين المتعصبين إلى مشروع حرب عالمية لاخضاع العالم بالقوة لدين الإسلام وشريعته.

علينا الا ننسى ياصديقي ، قبل كل شيء ان القرآن يأمر المسلمين بعدم قتال غير المسلمين الذين يرتبطون معهم بميثاق .. اما اولئك الذين تربطهم عداوة بالمسلمين واعتزلوا المسلمين ولم يقاتلوهم والقوا عليهم السلام فلا بأس على المسلمين من مقابلة هؤلاء بالسلم .. لكن الذين يبادلون المسلمين العداء (الفتنة) ولم يعتزلوهم او يلقوا اليهم السلام .. ففي هذه الحالة يستحقون القتال اينما « ثقفوا» .

الأكثر من هذا، تضمنت سورة النساء اية عن اشد فئات المنافقين نفاقاً ولم توجب عليهم عقوبة في الدنيا جزاء نفاقهم .. اقرأ هذه الآية الكريمة : ((أن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم إزدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا)) .. فمع ان القرآن كشف خبيئتهم واعلن كفرهم مرة بعد أخرى فانه لم يوقع عليهم عقوبة.. لا عقوبة الردة المزعومة.. ولا عقوبة قتال الكافرين حتى يدخلوا بالقوة في دين الإسلام !!

عند مقارنة هذه الأيـة بآيات تتضمن احكام قتال المعتدين ومسالمة الذين يعتزلون المسلمين ويلقون عليهم السلام .. سنجد الرد القاطع على امثال هؤلاء الذين يدعون إلى قتال العالم غير المسلم حتى يدخل اهله في دين الله ويتوبوا عن كفرهم في الدنيا.

الأية السابقة واضحة وترد على هؤلاء الذين يشوهون مفهوم الإسلام للجهاد .. فالذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفراً ولم يضمروا حرباً على المسلمين فان الله لم يأمر المسلمين بقتالهم أو تطبيق حد الردة المزعوم عليهم .. بل ترك عقابهم إلى الله يوم القيامة.

الحبيشي : وماذا عن الحرب حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله، وهو ما يتعلل به هؤلاء لتسويق مفهومهم القتالي للجهاد من أجل اسلمة كل شير في العالم كله ؟

البنا : في كتابي « الجهاد » شرحت معنى حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .. واعتقد انه من الضرورة استحضار الآية المعنية وهي في سورة الأنفال ((قل للذين كفروا ان ينتهوا نغفر لهم ما قد سلف وان يعودوا فقد مضت سنة الأولين وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير)) .

الآية واضحة .. انها تستبعد الفتنة أي اجبار الناس على تغيير المعتقد كما جاء في سورة البروج ((ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق)) .. فاذا استبعدت الفتنة اصبح الدين لله بحيث لايتحول الى مشكلة يتنازع ويتقاتل عليها البشر.. وبهذا يكون المعنى الحقيقي بعيداً عما قد يتبادر إلى ذهن بعض المتعصبين من ان المقصود هو ان يكون الدين هو الإسلام .. في حين ان نص الآية « ويكون الدين كله للهى » يشمل كل ملل الدين ..مع الاخذ بعين الاعتبار ان قصر الدين على الإسلام يناقض الآيات التي تركت اتباع الاديان الاخرى على ماهم عليه «الذين هادوا، النصارى، الصابئة.. الخ»، واوكلت إلى الله وحده يوم القيامة، الفصل بينهم وبين الذين آمنوا وهم هنا المسلمون.

وفي اجتهادي ـ والله اعلم ـ انه لو كان الغرض من تعبير « ان يكون الدين كله لله » هو فرض الإسلام على كل شبر في الأرض لوجب ان يغير اتباع الاديان الأخرى الذين اوكلت آيات القرآن امر ما يختلفون فيه مع المسلمين الى الله وحده في يوم القيامة وليس في الدنيا، لوجب على هؤلاء ان يغيروا دينهم إلى الإسلام، فان لم يفعلوا ذلك طواعية فيجب اجبارهم على ذلك قسراً وبالقوة وهو مايصبح " فتنة " .. وبالتالي يؤدي هذا التفسير الذي قدمه بن لادن والظواهري وصعتر والملا عمر وأمثالهم إلى عكس معنى الآية الكريمة !!

ومن الواضح ايضاً ان الأمر بالقتال هو موجه لاولئك الذين لا يكتفون بالكفر فقط .. بل ويصرون على قتال المسلمين بهدف اجبارهم على ترك عقيدتهم قسراً.. اما اذا « انتهوا » فسيغفر الله لهم .. بل ان آية القتال التي يتحجج بها المتطرفون تقول بوضوح أكثر: « فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير» .

الحبيشي : ولكنكم قلتم بل ودرجتم باستمرارعلى القول: ان معظم الآيات القرآنية تتناول القتال بمعنى الحرب الدفاعية ، واوضحتم في أكثر من محاضرة وكتاب ومقابلة ان حروب النبي عليه الصلاة والسلام كانت في الاصل حروباً دفاعية أو لتأمين العقيدة او نتيجة لنقض العهود .

البنا : نعم قلت هذا ولازلت عند موقفي.

الحبيشي : أنتم تحدثتم ايضاً عن علاقة خفية بين الإسلام وبين نوع ما من القتال.. ولعل ما استدعى انتباهي قولكم في كتاب لكم لايحضرني اسمه في هذه اللحظة ان ثمة جاذبية خاصة تجذب الإسلام لنزعة القوة أو لفكرة القوة .. حيث يمكن للإنسان ملاحظة ذلك بشفافية في سياق بعض الآيات أو النصوص القرآنية والاحاديث النبوية الصريحة.

البنا (مقاطعاً) : كلامك يا عزيزي أحمد ملتبس مع إحترامي الشديد لك .. وانت كما هو واضح متابع جيد لهذه الاشكالية .. واشكرك كثيراً لانك تدفعني الآن بهذا الاستفزاز المحبب لدي إلى ان اخوض في نزعة القوة عند المسلمين الاوائل .. والتي كانت بحسب ظني مسؤولة إلى حد كبيرعن ظاهرة الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين .. تلك الفتوحات التي أسست وكونت دولة الإسلام الكبيرة .. وحارب فيها المسلمون بروح « جهادية » عالية وعمقوا فيها مبدأ كسب احدى الحسنيين « الشهادة أو الانتصار» .. واظهروا فيها بطولات يفخر بها المسلمون حتى اليوم.

الحبيشي : ولكن ثمة سؤال مشروع يبرز في الذهن خاصة عند المفكرين غير المسلمين .. ويجب ان نطرح هذا السؤال ايضاً أمام العقل الإسلامي .. كيف نجمع بين نزعة القوة في ظاهرة الفتوحات الإسلامية وبين حرية العقيدة ؟

البنا : كله على بعضه يقبل التفسير في أكثر من وجهة .. وهذه في تقديري اشكالية لابد ان يقف أمامها العقل الإسلامي سواء في هذا العالم الذي يختلف عن عالم المسلمين الاوائل بمعايير العلاقات بين اطرافه .. أو في هذا العصر الذي يختلف عن عصرهم بقيمه الحضارية والإنسانية وموازين القوى بين مكوناته.

لاشك في ان الطبيعة الجهادية للإسلام عرضت الحياة الإنسانية في صورة نزال بين الخير والشر وابتلاء بالسراء والضراء .. ولعل تفسير اشكالية الجمع بين الفتوحات الإسلامية وحرية العقيدة يعود لنزعة تغليب القتال على الجهاد لدى الفقهاء وكانوا في عهد التأسيس بعد وفاة النبي يجمعون بين الخليفة والفقيه وأمير الجيش .. وخاصة في فترة الخلافة الراشدة حيت كان الخليفة هو الفقيه وهو أمير الجيش .. ولم يحدث الفصل بين هذه السلطات الا في عهد الدولة الأموية وما بعده ، حيث اكتسبت الفتوحات ابعاداً اقتصادية جديدة في سياق نمط الانتاج الخراجي .. ولم يكن للفتوحات لاحقاً علاقة بالجهاد بهذا المعنى ..بل كانت اشبه بالتوسع والتراجع من منطلقات اقتصادية وعسكرية بحتة تدخل ضمنها تداعيات الحروب الداخلية بين مركز الخلافة واطرافها ونشوء الدول الطائفية الإسلامية .

يمكن القول ايضاً ان هذه الظاهرة تعرض لنا حالة معقدة ومركبة يتلاقى فيها المبدأ بالمبدأ والمثل الأعلى بالمثل الأعلى .. انني اؤمن تماماً بأن مبدأ حرية العقيدة أو حرية الاعتقاد هو الاصل والقاعدة في الإسلام .. ولكن يحدث في بعض الحالات ان يظهر مبدأ يتطلبه التطور بالنسبة للظروف الخاصة أو الآنية مثل تحقيق العدل أو الأمن .. فتصبح الأولوية بتأثير هذا التطور للعدل ..لمبدأ تحقيق العدل ومقاومة الظلم أو ضمان الامن ومقاومة خطرالعدوان أو خطر الفتن الداخلية !!

بالاضافة إلي تلاقي المبادئ يمكن ان تتلاقى المجتمعات فيظهر على سبيل المثال مجتمع جديد يتسم بكل عناصر القوة والحيوية والفعالية .. فيتصرف كحصان جامح يريد ان ينطلق ليتجاوز مجتمعات شائخة يجواره ربما تكون طبقية أو تقليدية فقدت حيويتها.. في هذه الحالة يكون طبيعياً ان يندفع المجتمع الجديد بكل حيويته ليكتسح المجتمع الهرم ، مما يؤدي إلى غلبة وانتصار المبادئ الجديدة والميول الجديدة للمجتمعات الجديدة على المبادئ القديمة للمجتمعات الشائخة.

قبل ظهور الرسالة المحمدية كان المجتمع البشري يتخبط في اسار حضارات طبقية جائرة تسودها الجهالة والوثنية.. وكان ابرز هذه المجتمعات وهي الفارسية والرومانية تتميز باستعباد الجماهير والتحكم فيها اما من خلال تزييف الرسالات السماوية السابقة التي جاءت لتحريرها .. أو تأليه الملوك والحكام وتعظيمهم وتجليلهم .. وعندما جاء الإسلام في صورة مبادئ عادلة تدعو إلى ان تحل المساواة محل الطبقية والشورى محل الاستعباد والعدالة محل الظلم والعلم محل الجهل والعقل العلمي التحليلي مع النقل الحرفي والتسليم الأعمى .. كان لابد من تقويض أسس وهياكل النظم القديمة الجائرة من خلال النزوع إلى تغليب القوة وتهميش العقل ومحاربته ومحاصرته ..انني لا أدافع عن ما حدث ولكن الظروف والمتغيرات التي حدثت بعد ذلك وتتعاظم الآن ، تفرض علينا التخلص من النظرة النمطية لمفهوم الجهاد المرتبط بالقتال بما في ذلك التخلص من عبودية التأويل .. أي الا نكون عبيداً لتأويل الفقهاء القدامى لهذه القضية أو تلك وهو تأويل تاريخي بكل المعاني ، ومحكوم بظروف تاريخية سابقة لايجوز ان تحكمنا الان .. ولا يجوز نقلها حرفيا و قبولها كما جاءتنا في كتب الفقهاء الأسلاف بدون نقاش .. ومع ذلك فان الغرض الرئيسي من الجهاد في الإسلام ليس هو حمل الناس قسراً على الايمان بالاسلام على نحو ما قاله بن لادن و الظواهري واشياعه عندكم أو في السعودية أو في مصر أو في بلدان أخرى .. حيث يدعو هؤلاء إلى فرض الشريعة الإسلامية على كل شبر من الارض لايحكمه الاسلام .. لان الاسلام لو اراد ذلك لما سمح ببقاء كل من يشاء الاحتفاظ بدينه .. ولما حمى الكنائس ولما اعطى القسيسين والرهبان نوعاً من الحصانة.

الحبيشي : هناك من يرى ان الجزية التي اقرها الإسلام هي الثمن الذي يدفعه غير المسلمين مقابل ضمان حرية العقيدة بالنسبة لهم ؟

البنا : الجزية ظاهرة تاريخية.. وهي غير موجودة الآن .. وأود القول بأن الآيات التي تشير الى ضرورة أن يدفع غير المسلمين الجزية وهم صاغرون ليست تشريعا ثابتاً وواجب التنفيذ في كل زمان ومكان .. خصوصا في العصر الحديث الذي تسوده قيم المواطنة المتساوية في الدولة المعاصرة والمجتمع الدولي الحديث .. ومع ذلك يقر المسلمون بعدم ضرورتها وعدم فائدتها.. والإسلام هم المسلمون.. والجزية ـ يا صديقي أحمد ـ لم يأت بها الإسلام .. لقد كانت موجودة تاريخياً قبل الإسلام .. وقد دفع المسيح نفسه الجزية وكانت عند الرومان وغيرهم ثقيلة وباهظة.

صحيح ان البعض يرى في الجزية ثمناً أو ضريبة مفروضة على الذين يريدون الاحتفاظ بدينهم بعد ان رفضوا الايمان بالإسلام .. هذا البعض قد يرى ان الجزية ثمن يخالف حرية الاعتقاد كحق غير مشروع من حقوق الإنسان.. ولكن الأمر في تصوري ليس بهذا التبسيط .. حالياً يمكن ان يبقى الانسان على عقيدته بدون ثمن يدفعه .. بإمكانه أن ينخرط ايضاً في حقوق وواجبات المواطنة بعيداً عن اعتبارات العقيدة بحكم تطور المجتمع البشري وتطور الدول وتطور العلاقات بين الدول وتطور الحضارة البشرية المعاصرة.

لكن الوضع في تلك الفترة مختلف تماماً عند اسلافنا .. ولا يجوز قياس وضع العالم المعاصر والمجتمع الدولي المعاصر على وضع عالم الاسلاف الذي تختلف مواثيقه و معاييره السالفة مع قواعد العلاقات الدولية ومبادئ العيش المشترك في ظل قيم ومواثيق المجتمع الدولي المعاصر.

لو لم تكن الجزية قائمة آنذاك لكان البديل الوحيد هو انخراط غير المسلمين في خدمة الإسلام الذي لايؤمنون به.. ولولاها لأصبح جائزاً أخذهم والحاقهم بالجيش الإسلامي وعندئذ يلزمون بالدفاع عن عقيدة لايؤمنون بها.. فالجزية آنذاك كانت تمثل سبيلاً للاحتفاظ بالعقيدة وبديلاً عن القسر الذي لم يكن منه مناصاً نتيجة للتعقيد الاجتماعي في ظروف تاريخية سابقة وهي ليست ثمناً للحرية كما جاء في سؤالك.

الحبيشي (موضحاً) : أنا لم اقرر ذلك في سؤالي وانما عرضت افكاراً يراها البعض على لسانهم ومنشورة في كتب وابحاث؟

البنا : عفواً لسوء فهمي لك.. لان ماورد في سؤالك لايعني بالضرورة انك توافق على محتواه.. ولكني أود ان اوضح بهذه المناسبة جانباً مهماً لعله يسهم في تسليط مزيد من الضوء على هذه المسألة الشائكة .

الجزية ـ يا عزيزي ـ لم تكن ثمناً للحرية بل كانت ثمناً للعدالة والحماية.. كان هذا الثمن الذي دفعه غير المسلمين صفقة رابحة بالنسبة لاولئك الذين آثروا الاحتفاظ بدينهم والتمتع بحرية ممارسة عقائدهم أكبر مما كانت صفقة رابحة للمسلمين.

الحبيشي : كيف ؟

البنا : كان غير المسلمين سعداء بدفع الجزية على حساب المجتمع الإسلامي إلى درجة ان الجزية ساعدت فيما بعد على ظهور « الامتيازات الاجنبية ».. وظهور مجتمعات منفصلة وشبه مستقلة داخل المجتمع الإسلامي .

الحبيشي : والان مارايكم في الذين يقولون انه ليس هناك شيء بين المسلمين وغيرهم في البلدان الاسلامية سوى ان يدخل غير المسلمين في الإسلام أو أن يكونوا من أهل الذمة ويدفعوا الجزية.. هذا الكلام مع الاسف قرأته في كتاب انيق صادر عن رابطة العالم الإسلامي .. وعلى غلافه الأمامي عبارة «يهدى ولا يباع».. كما سمعته ايضاً في شريط صوتي لأحد شيوخ الكاسيت بحسب وصفك ؟

البنا : هذا تخريف.. تخريف حقيقي.. انه يدل على الجهل بحقائق التاريخ والجهل بحقائق العصر الراهن والاغتراب عن الحضارة الحديثة القائمة.. ان الذين يقولون هذا الهراء يجهلون تماماً الإسلام .. ولا يعرفون قيمه ومقاصده الإنسانية النبيلة.. والأكثر من كل ذلك انهم يجهلون ديناميكية الإسلام وقدرته على التطور والتكيف مع المتغيرات التي تحصل ويمكن ان تحصل في كل زمان وكل مكان.

الحبيشي : في ضوء ما تقدم .. كيف تعلل اصرارك على مبدأ تثوير فهمنا للقرآن؟

البنا : القرآن قام بالثورة التي احدثها الإسلام عند ظهوره على نحو ما شرحته سابقاً .. لقد عالج القرآن النفس الإنسانية لأن الإسلام نقل المعجزة من مجال الطبيعة ـ التي كانت محور الإعجاز في الاديان الأخرى ـ إلى النفس الإنسانية.

لم نجد في الإسلام والقرآن معجزة تشبه احياء الموتى او شق البحر وغير ذلك من معجزات الانبياء السابقين للرسول محمد عليه افضل الصلاة والسلام .. القرآن اتجه إلى النفس الانسانية ، وكان ولا يزال كتاباً يحتوي أعلى درجات الفن الرفيع .. وانا هنا لا أقصد مفهوم الفن الشائع .. بل اقصد ادوات الفن العميقة مثل : المجاز والنظم والايقاع الموسيقي والبيان .. كان القرآن ـ و لا يزال ـ يؤدي دوره بمجرد سماعه على طول.. ويترك تأثيراً عميقاً في القلب والعقل والوجدان والنفس فيتحول من يتأثر بمعاني القرآن من الشرك إلى الايمان.

عندما ارسلت قريش عتبة بن الوليد لإغراء الرسول بمختلف الوسائل كي يترك الرسالة.. استمع الرسول اليه طويلاً .. ورد عليه بقراءة بعض الآيات القرآنية فنزلت على اذني عتبة كالصاعقة وقال للرسول : حسبك ، حسبك ! ثم عاد إلى قومه.. فلما رأه ابو جهل اقسم ان ابن الوليد عاد بوجه غير الوجه الذي ذهب به إلى الرسول وكان محقاً في ذلك.

هذه هي قوة القرآن الثورية التي نحتاجها اليوم.

الحبيشي : استاذ جمال .. فيما يتعلق بهذه الاشكالية ، ثمة غبار حول الفقة الإسلامي بسبب الخلافات التي حصلت بين جمهور الفقهاء .. انا شخصياً متفق معك فيما قلته لي قبل اكثر من إثني عشر عاماً سنوات انه لم يكن هناك أي اجماع بين جمهور الفقهاء .. وان القول بأن جمهور الفقهاء اجمعوا على كذا وكذا يعتبر كذبة كبرى .. ومن العيب ان يكذب بعض الذين يزعمون بانهم من اهل الذكر فيقولون : لقد اجمع جمهور الفقهاء على كذا وكذا.. حتى جمهور المذهب لايجتمعون على قضية واحدة كما حدث على سبيل المثال عند تباين مواقف الفقهاء المسلمين من احتلال العراق للكويت عام 1990 حينما عقد فقهاء سنيون مؤتمراً معارضاً لهذا الاحتلال في مكة ،، وفي الإتجاه المعاكس لهم عقد فقهاء سنيون آخرون مؤتمراً مؤيداً لصدام حسين في بغداد آنذاك .. وكل طرف اطلق على نفسه صفة "علماء الأمة" حيث زعم هـؤلاء (العلماء) في بيان كل طرف منهما على حدة بأنّ « جمهور العلماء أجمعوا على كذا وكذا » في اتجاهين متناقضين!!.

ثمة إشكالية عاناها الفقه والفقهاء هي إشكالية النص.. وانت الآن تتحدث عن الحاجة لتفسير جديد وقراءة جديدة للقرآن.. ثمة من كان يرى ان معنى القرآن الحقيقي هو في عموم اللفظ وليس في خصوص السبب.. بيد انك لاتتحدث عن الفاظ ولا عن اسباب بقدر ما تتحدث عن مقاصد الدين ومقاصد القرآن وقيم الإسلام على نحو ما فعله الإمام الطوسي رضي الله عنه .. واذكر انك قلت في حوار مع احدى الصحف الالكترونية على شبكة الانترنت انه ليس مهما عموم اللفظ ولا خصوص السبب ، لان الذين يختلفون في هذين الجانبين يهملون المقصد ويتجاهلون حقيقة ان الدين جاء في الاساس بقصد خدمة الانسان وإعلاء شأنه وتكريمه .. لان الله كرمه بالعقل وميزه عن غيره من الكائنات بالعقل .. واستخلفه في الأرض لكي يعمرها بالعقل والإيمان بعد ان علم آدم الاسماء كلها.. هل من الممكن يا استاذي تسليط الضوء على رؤيتك لهذه الاشكالية في اطار مشروع تجديد الفقه الإسلامي الذي تتبناه الآن؟

البنا : نحن استبعدنا اسباب النزول كلها لسببين : السبب الأول ان الاسباب التي تقدم في كتب التفسير تعتمد على مرويات ركيكة جدا لايمكن ان نحكمها في النص بصرف النظر عن سندها.. لان السند نفسه مشكلة عويصة وغنية باشكاليات لاينكرها الا اولئك الذين قرروا اعطاء عقولهم اجازة طويلة .. ثم قرروا قبول نصوص الإخباريات التي جاءتهم عبر كتب الرواة والشراح والمفسرين كما هي بدون نقاش أو نقد موضوعي .

القرآن ـ يا عزيزي ـ قطعي النزول والثبوت ولكن الاحاديث كلها ظنية الثبوت فيما عدا ما يوصف بالحديث المتواتر.. علما بأن المسلمين إختلفوا وتصارعو وانقسموا على أساس أحاديث يقال عنها بأنها متواترة .. كما أن الكثير من الفقهاء على وجه الخصوص والمسلمين ـ عموماً ـ رغم كثرة صراخهم حول تطبيق السنة وإعتبار السنة جزءاً لا يتجزأ عن الشريعة الاسلامية ، تجدهم لا يجيزون القياس على بعض الأحاديث والروايات المتواترة مثل روايات الذبابة والربابة والمحراث والمزمار ورضاعة الكبار .. وغير ذلك من الروايات التي تواترت منسوبة الى السنة النبوية .. حيث يعتبرها بعضهم حالات خاصة لا يجوز القياس عليها.. فيما ذهب بعض الفقهاء لإختراع الحيل لتبرير قبول بعض تلك الأحاديث وخاصة التي تقول بتحريم الغناء وتحريم الموسيقى والفنون والتصوير .. فهم يجيزون القياس عليها ويضيفونها الى الشريعة ويجعلونها شريكة لحكم الله باسم السنة وليس باسم القانون الوضعي ، مع أنها من صنع الوضاعين الذين إحتالوا على التاريخ بنسبها الى الرسول .. لكنهم لا يجيزون القياس على البعض الآخر .. وهذا يفتح أبواباً واسعة لمزيد من الإشكاليات المنهجية والعقلية حول مدى صحة هذه الرواية أو تلك .. ومدى سلامتها وقابليتها للتطبيق والاستمرار في مختلف العصور والأزمنة والأمكنة بميزان العقل .. بصرف النظر عن ثبوت تواترها في فقه أهل السنة وفقه أهل الشيعة .

إذا درست الحديث المتواتر ستجد انه أبعد الاحاديث عن المصداقية لأن معظمها عن حتمية عودة الإمام المهدي الغائب .. و عن الأئمة الإثنى عشر وظهور جيش عدن أبين والفرقة الناجية وحكر الحكم على قريش الى قيام الساعة .. وعن الدجال الأعور وحيتان الجزر والثعبان الاقرع والشجر أوالحجر اللذين سيبلغان المسلم بأن يهوديا إختبا خلفه ليأتي فيقتله .. وغيرها من الروايات التي تسيئ الى الإسلام ، ولا يقبلها العقل السوي على الاطلاق .. بل واقرب الى الخرافة.

هذا الحديث المتواتر لا يمكن ان مقاربته بالآيات القرآنية الربانية من زاوية اسباب النزول .. و لايمكن تصديقها وقبولها لمجرد أنها وردت كأحاديث صحيحة نقلتها الينا كتب الحديث مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم .. أولمجرد أن أهل السنة يلحقونها بالقرآن مثلما يلحق اليهود كتاب التلمود بالتورات .. وكذلك مثلما يلحق المسيحيين إصحاحات الانجيل التي أعدها الحواريون على لسان المسيح عليه السلام بالانجيل الذي هو كتاب الله .. وما ترتب على ذلك من تحريف لليهودية والمسيحية عندما ألحقت كتب الحوارات والروايات المنسوبة الى الأنبياء بالكتب السماوية .. وأصبحت غالبة عليها كما يحدث الآن للإسلام على أيدي بعض فقهاء أهل السنة والشيعة !!

ثمة شيء آخر وهو القول بان القرآن كتاب قصصي وحكايات على نحو ماذهب اليه المستشرقون الذين لم يفهموا الإسلام ، وارادوا حصر معانيه في اسباب النزول التي تشرح ظروف تلك القصص والحكايات.. وبتعبير آخر فان موضوعة اسباب النزول اضحت تشبه المذكرة التفسيرية للقانون.

الحبيشي : طيب.. الا تعتقد ان موضوعة عموم اللفظ تقودنا إلى عبودية النص بالفاظه وليس بمعانيه؟

البنا : يا أخي ، لاتفهم من اعتراضي على اسباب النزول انه انحياز لاصحاب اطروحة عموم اللفظ .. كلا الاطروحتين تسببتا في تهميش العقل وحصره بين المطرقة والسندان.. مطرقة قراءة النص من منظور اسباب النزول.. وسندان قراءة النص من منظور عموم الفاظه فقط .. وكلاهما يقودان الى الكسل الذهني .

انا اؤمن بأنه ليس من نص لا يقبل الاجتهاد.. كل النصوص القرآنية قابلة للاستدلال .. وقابلة للإجتهاد وتجديد الإستدلال وفقا لمقتضيات ومتغيرات الحياة في كل عصر .. وفي كل طور من أطوار الحضارة الإنسانية التي لا يمكن قولبتها في قالب جامد وثابت ونهائي .. قالب مطلق لا يقبل الصيرورة والتجدد .

الحبيشي : انت تحدثت في السابق عن احاديث متواترة ارتبطت بالخرافات.. ما رأيك في احاديث تدعو إلي العلاج ببول الابل واوساخ الذبابة.. اليس البول من الاشياء النجسة ويجب التطهر منه فكيف تتحول الاشياء النجسة إلى وسائل للعلاج؟

البنا : هذه الاحاديث والروايات مشكوك فيها .. وهي جزء من مأساة المسلمين واسباب تخلفهم العقلي وتدهورهم الحضاري ومصائبهم المستمرة والمتلاحقة.. ومن المؤلم جدا ان فقهاء أهل الشيعة وفقهاء أهل السنة إختزلوا الاسلام على أيديهم في صورة روايات وأحاديث ما أنزل الله بها من سلطان .. حيث أصبح الإحتكام اليها أكثر من الإحتكام للقرآن الذي نقله الينا النبي وحده .. ولم ينقله الينا بشر إختلفوا وتصارعوا وتناحروا بينهم البين كما هو حال هذه الأحاديث والروايات التي يتبناها اهل الشيعة وأهل السنة الذين ويزعم فقهاؤهم بأنها الحق والحقيقة

زز وإن الآخر مخالف ومارق ومشرك .. وكل حزب بما لديهم فرحون ..ولا يمكن لنا بأي حال من الاحوال الشروع في الخروج من مأزقنا الحضاري دون التخلص من هذه الخرافات.

الحبيشي : هناك من يرى ان جزءا كبيرا من مصائبنا يعود إلى موضوعة الحديث وتحويله الى ملحق بالقرآن على غرار التلمود بعد أن طغى على التوراة عند اليهود وفتح الباب للتحريف والحذف والإضافة إلى كلام الله بكلام رواه بشر عن بشر بصورة لا تخلو من خلافات وإإشكاليات منهجية تدخل في إطار المتون الظنية التي لا صلة لها بالوحي الإلهي الحق .

المدهش حقاً أنّ فقهاء الحديث يؤكدون على أنّ الأغلبية العظمى من الأحاديث المنسوبة للرسول صلى الله عليه وسلم هي أحاديث أحاد ، ويؤكدون أنّها تفيد الظن ولا تفيد الحق .. ومع ذلك فإنّ فقهاء الحديث من أهل السنة يعتبرون هذه الأحاديث الظنية ركناً من أركان الإسلام وأصلاً معلوماً في الدين .. وهم بهذا يتعارضون صراحةً مع القرآن الذي يحذر من إتباع الظن بقوله تعالى : «إنْ يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى» وكذا بقوله سبحانه وتعالى : « وأنّ الظن لا يغني من الحق شيئا » صدق الله العظيم.

كيف نفهم اشكالية الحديث الذي يجري تقديمه كشريعة واجبة التنفيذ بينما الرسول عليه الصلاة والسلام نهانا عن تدوين السنة وقال : « لا تكتبوا عني غير القرآن، ومن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه » ثم محا بيديه الشريفتين ما كان الصحابة يكتبونه على لسانه.. بالاضافة إلى ذلك احرق الخليفتان ابو بكر الصديق وعمر بن الخطاب كل ما كان مكتوباً من احاديث الرسول.. ولم نسمع بتدوين الحديث وجمعه مرة اخرى الا بعد أكثرمن مائة سنة ونيف وفي ظل صراعات واستقطابات سياسية على الحكم حيث جرى توظيف الحديث النبوي لصالح هذا الطرف أو ذاك .. مارأيكم؟

**البنا : نعم.. الرسول امر بمحو ما كتبه الحفاظ من احاديثه واقواله.. وابو بكر وعمر منعا تدوين السنة في عهديهما.. لعمر بن الخطاب قول مشهور عندما منع تدوين السنة واحرق ما ت